

من هنا وهناك

كلمة عن آدم بيد وقطعة مختارة منها

وإن آدم ذلك الرجل الشريف
الصعب القادة ، والفنان الجليل
الخطر ، قد اتخذ هيتى بنت أخت
المزارع بويزر ، صديقة له وخليفة .
ولكنهما تقاطعا وتدابرا عند ما مالت
إلى الكابتن آرثر دوتهورن وبالم إليها .
وكان هذا شاباً حسن الصورة لطيف
الخلق وسم القسمات .

وفى رواية « آدم بيد » أشخاص
غير هؤلاء يقومون بأدوار مهمة .
والرواية ملأى بالتيارات المتعارضة ،
ومشا كل الحياة المعقدة . وكذلك هى
ملأى بومضات من الفكاهة مما يجعل
هذه الرواية أثراً أدبياً له جلاله وله
خطره .

وإليك الصورة التى رسمتها الكاتبة
للعالم الذى كانت تعيش فيه هيتى
سوريل :

لقد اعتادت هيتى التوهم أن
الناس يحبون النظر إليها ، وهى لم تكن
غافلة عن أن لوك برينون قد جاء من
بلده إلى بلدها ودخل الكنيسة فى
أصيل يوم الأحد على أمل أن يراها ،

جورج إليوت هو اسم القلم الذى
أطلقته ماري آن إيفانس على نفسها .
وقد ولدت الكاتبة فى أكسبوري
عام ١٨١٩ وعاشت فى تلك الناحية
ثلاثين عاماً .

ويقول هربرت سبنسر —
سذاجة العلماء — إنه فكر فى الزواج
من جورج إليوت ، ولكنه لم يفعل
ذلك لأنه يرى أن المرأة يجب أن
تكون على شئ من الملاحاة والوسامة .
وانصلت حياتها بحياة فيلسوف آخر
من أصحاب المزاج البوهيمى ، هو جورج
هنرى لويس ، وعاشت معه إلى أن
مات . ثم تزوجت بعد ذلك رجلاً آخر .
وقد تكون قصة « آدم بيد » أو

إن شئت فقل قصة هيتى سوريل أحسن
ما خطه يراعها . وهى قصة تمت إلى
الواقع فى بعض أجزائها . وهى تذكر
القارئ بقصة مرجريت فى رواية
« فاوست » وهى فتاة ساذجة خلبت
لها المظاهر وخدعتها ، فأودت بها
وأسلمتها إلى اليأس وإلى العيش المرير
وإلى العذاب .

وأنه قد كان من الممكن أن يفسح المجال لآماله في حبها لو لم يصدّه خالها . ولو لم يوص هذا الخال امرأته بألا تبدى له أى لون من ألوان المجاملة . وكانت هيتى تعلم كذلك أن مستر كريج الجنائى كان مدّها في حبها . وقد أقام الدليل الذى لا ينقض على حبه بما كان يرسله من هدايا التوت المفروط في الحلاوة .

وكانت هيتى تعلم أكثر من ذلك أن خالها كان يسره أن يرى آدم بيد كل ليلة . وكان يقول عنه : إن آدم على علم بطبيعة الأشياء أكثر من أولئك الذين يظنون أنهم أكثر منه دراية ومعرفة .

وكانت هى تعرف أن آدم هذا الذى كان دائماً مقطب الوجه والذى لم يكن يعرف كيف يجرى وراء الفتيات يخفق قلبه لو أنها نظرت إليه أو كلمته . وكانت تعرف أن آدم هذا قد يكون شيئاً مذكوراً إذا قيس إلى أهل الضاحية من الفلاحين .

وكانت تعلم علم اليقين أن عمها يريد أن يشجع آدم وأنه يسره أن تزوجه .

وفى تلك السنين لم تكن هناك حدود بينة العالم تقوم بين الفلاح والمزارع وبين الفنان . وهناك فى

الغزل بجوار الموقد كانا يلتقيان ، كما كانا يلتقيان في الحانة حيث كانا يراهما الرءاون يشربان كوباً من البيرة معاً . ولم يكن مارتن بويزر من رواد الحانات ، وكان يفضل أن ينعم بالحدّث مع صاحب من أصحابه وهما يشربان كوباً من البيرة المصنوعة في البيت .

وكان من دواعى سروره أن يفسر القانون لجار جاهل لا يعرف كيف يدير أمر غبطه . وكذلك كان من دواعى غبطته أن يتعلم شيئاً من رجل ذكى كآدم بيد .

ولذلك ظل آدم بيد ثلاث سنوات يلقي كل ترحيب بين أفراد أسرة مارتن بويزر ، وبخاصة فى ليالى الشتاء حيث كانت تجتمع الأسرة كلها : السيد والسيدة والأطفال والخدم فى غرفة المطبخ الواسعة الأرجاء وهم من النار المتقدة على أبعاد متناسقة .

وقد اعتادت هيتى فى السنتين الأخيرتين على الأقل أن تسمع خالها يقول :

قد يكون آدم بيد يعمل الآن من أجل الأجر ، ولكنه سوف يكون سيداً وجيهاً يوماً ما . وإني على ثقة من هذا الأمر كتحقّى بأنى جالس على هذا الكرسي الآن . ثم أضاف إلى ذلك قوله :

ولكن أن تتزوج هيتى آدم فهذا
شئ مختلف جداً . . . ولم يكن هيتى
فى الدنيا يغريها أن تفعل ذلك ، ولم
تكن تحس إذا رآته بما يحس به المحبون
من حمرة فى الخد وخفقة فى القلب
وأهة فى الصدر .

ولكنها كانت تحس بالنصر البارد
لمعرفتها أنه يحبها ، وأنه لا يعنى بأن
يلقى نظرة على مارى برج .

وهو لم يكن يثير فيها النشوة
الحلوة للحب فى عنفوانه أكثر مما
تستطيع الشمس أن تثيره من حركة
فى العصارة المائية التى تجرى فى ألياف
النبات .

وكانت تنظر إليه نظرتها إلى رجل
فقير يعول أهله الفقراء الذين لا
يستطيعون حتى فى زمن بعيد مقبل أن
يجعلوها فى رغد من العيش كذلك
الرغد الذى تلقاه فى بيت خالها ؛ فقد
كان رغد العيش مادة أحلامها فى
الليل والنهار .

وكانت تقول فى مناجاتها : لو كان
آدم غنياً لأحبيته ثم لتزوجته .
ثم مضت بضعة أسابيع وإذا
بطائف جديد يطوف بخاطر هيتى ،
طائف غامض ، طائف فى الأفق ، قد
اتخذ لنفسه صورة الأمل المزوجو وكان
له فى نفسها تأثير المخدر ، وقد جعلها

إن مستر برج لعل صواب فى رغبته
مشاركته وفى ترويضه بنته إذا صح
ما يقولون ؛ فانه صفقة رابحة لمن
تتزوجه . وكانت امرأته تقول كلما
سمعت هذا القول : آمين . . .

ولقد كان من المحتمل أن تنظر هيتى
وزوجها إلى هذه المسألة نظرة تختلف
عن هذه النظرة لو كانت هيتى بنتها ،
ولكنهما كانا يرحبان بتزويج آدم من
بنت أخت لها لا تملك درهماً .

ومن كانت تكون تلك الفتاة فى
مكان آخر غير خادمة ، لولا أن اجتباها
خالها ورباها لتكون لخالتها عوناً فى
خدمة المنزل .

ولكن آدم يبد لم يلق يوماً من
الفتاة هيتى شيئاً من التشجيع ، بل لم
تكن تفكر فى أن تقبله زوجاً ، حتى فى
الساعات التى كانت فيها تحس بتفوقه
على الآخرين العجيين بها .

وكان يلذ لها أن تحس أن هذا
الرجل القوى الماهر فى صناعته هو
طوع بناتها ، وأنه سوف يكون موضع
سخطها لو أبدى أى ميل للتخلص من
سطوة طغيانها ، ذلك الطغيان الذى
يعشه الدلال . وكذلك لو أبدى ميله
لأن يصل حبله بحبال مارى برج اللطيفة
الطريقة التى كانت تتمنى نظرة عجل
منه فتقابلها بمفور الثناء .

تمشى على الأرض وتغدو إلى عملها وتروح ، وهى فى شبه حلم روحى لا يعرف وزن المادة ، وهو يضىء على الأشياء كلها نقاباً سائلاً شفافاً وكأنها كانت تعيش فى دنيا المادة التى قوامها القرميد والحجر .

وقد علمت هيتى أن مستر آرثر دوتنهون يتجشم كل مشقة ويركب كل صعب فى سبيل رؤيتها ، وأنه يغدو إلى الكنيسة ليراها وهى جالسة وليراها وهى واقفة ، وأنه كان يفترص الفرص للقاءها وسماع حديثها .

وكان لا يخطر ببالها أن ذلك السيد ذا الجاه والثروة والشباب يمكن أن يكون يوماً ما محباً لها مدهماً فى حبها . مثلها فى ذلك مثل تلك الفتاة الجميلة ابنة الخباز التى ابتسم لها إمبراطور شاب ابتسامة الاعجاب ، فلم تصدق أنها سوف تصبح إمبراطورة . فذهبت ابنة الخباز إلى بيتها وهى تحلم بالإمبراطور الجميل الشاب ، وربما طففت وزن الدقيق من فرط الذهول .

وكذلك مرت بهيتى ثلاثة أسابيع على الأقل لا يشغل عقلها شاغل غير ذكريات من كلمات آرثر ونظراته . وكان صدى كلماته يتردد فى مسامعها ، وحلته الجميمة تراءى لعينها ، ورائحة الطيب تملأ الجو حولها .

وإلى يومنا هذا لم يكن أشهى لديها من ترقب عودة الكاتين دوتنهون أو ترقب يوم الأحد التالى لى تستمتع برؤيته فى الكنيسة . ولكنها اليوم تفكر فى احتمال محيئه إلى الصيد غداً ، وفى احتمال تحدته إليها وسيره إلى جانبها وقد غاب الرقيب . وهو ما لم يكن قد حدث إلى تلك الساعة .

ولكنها اليوم أيضاً لا يتعقب خيالها الماضى بل يفكر فيما يحدث غداً ، وفى أى مكان سوف تلقاه ، وفى أى مكان من شعرها سوف تضع الشريط الوردى الجديد الذى لم تشتريه بعد . وما الذى سوف يقوله لها لجعلها تجاوب نظرتة إليها بنظرة منها إليه . تلك النظرة التى سوف تستمتع بها بقية النهار . . .

وبينا كانت يدا هيتى تعملان فى لف الزبد فى الورق ، وبينا كان رأسها تملأه صور الغد المأمول ، كانت تداعب خيال دوتنهون آمال مرجوة غير واضحة ، آمال كامنة فى عقله . وقد صحا من غفوة خياله على صوت صاحبه مستر أورين وهو يسأله :

— ما الذى بتتك وأعجبك يا آرثر فى مصنع ألبان مسز بويزر ؟ أصبحت تهوى المكان الرطب وتحب صحاف القشدة ؟

الرجل الهرم ولم يبق لصاحبنا من يعوله غير أمه . وإني لأظن أن جبل الود متواصل بينه وبين تلك الفتاة اللطيفة المتواضعة ماري برج وقد عرفت ذلك من فلتات الحديث الذي دار بيني وبين الهرم يوناثان . ولكني لما ذكرت القصة لآدم بدا عليه القلق وغير مجرى الحديث . وفي ظني أن الود بينهما لا يجري مجرى سهلا ، أو أن آدم يؤجل الأمر حتى يصبح في رغد من العيش ، وهو رجل مستقل الرأي عظيم الكبرياء .

وسوف يكون هذا الزواج زوجاً طيب الثمر . وسوف تتوثق الصلة بين آدم وبين الهرم برج . وإني لأود أن أرى آدم عظيم المكانة بيننا . وسأشد به أزرى وأشركه في أمرى . وعندئذ سوف يمتد أفق آمالنا في التعمير والاصلاح . وإني لم أرا الفتاة من قبل ، أو على الأقل لم أنظر إليها .

فقال له محدثه : أنظر إليها يوم الأحد المقبل في الكنيسة . إنها تجلس عن شمال المنبر . إنك إن نظرت إليها فلن تجد بك حاجة إلى النظر إلى هيتي سوريل . وإن المرء إذا عقد العزم على ألا يشتري كلباً من السكالب الجميلة فانه يغض الطرف عنه . ذلك لأننا لو نظر كلانا إلى صاحبه نظرة ود ، إذن

وكان آرثر يعرف أورين ، ويعرف أن المراوغة لا تعجدي معه . ولذلك قال في صراحته المهددة : — إنما ذهبت لأرى صانعة الزبد الجميلة هيتي سوريل وهي التي تشبه عندي إلهة الشباب في الأساطير القديمة ولو كنت فناناً لصورتها . وإنه ليثير العجب أن يرى المرء ذلك الجمال الفاتن بين البنات الريفيات ، وآباؤهن هم أولئك المهرجون .

فقال له واروين : لا اعتراض لي على أن تفكر في هيتي على ضوء الفن . ولكني لا أود أن توقد جذوة الغرور عندها ، وأن تملأ رأسها الصغير بالقول الذي يوهمها بأنها آية من آيات الجمال . يفتن بها الشباب المترفون . إنك إن فعلت أتلقت فيها الزوجة المقبلة لرجل فقير ، كالرجل الطيب كريج مثلاً الذي رأيته ينظر إليها نظرة الاعجاب .

ويبدو أن تلك البنية الصغيرة قد ملأها الغرور ، وأن زوجها سوف يكون تعساً شقياً وفقاً للقانون الطبيعي الذي يجعل الرجل الفقير — إذا تزوج الحسنة الجميلة — يتلظى في لهب السعير .

وعلى ذكر الزواج أرجو أن يكون قد تم لصاحبنا كل شيء . فقد مات

لفعلت النظرات فعلها وأحدثت أثرها ، وإذن لاشتد العراك بين علم الحساب وبين الميل والهوى . وإني لأفخر يا آرثر بحكمتي التي كسبتي إياها السنون ، وإني لأضفي عليك ثوباً من هذه الحكمة .

فقال له آرثر : أشكر لك هذا الصنيع . وسأشد بهذه الحكمة يوماً ما أزرى ، ولو أنى لا أرى بي حاجة إليها الآن .

وبعد — فلترجع إلى آدم بيد . فقد كان موت والده غرقاً نكبة عليه . وإذ هو مستغرق في حزنه ، أيقظ حاسة الفضول عنده وقع أقدام خفيفة تتخذ طريقها إلى البيت . ورأى بعين خياله وجهاً تزينه النونات وتجمله عيان دعجاوان ، وثغراً يفتر عن ابتسامات خبيثة ماكرة .

ولكن ما مر بباله لم يكن سوى فكرة خاطئة . فلم تكن هيتى التي جاءت لتعزية أهله ، ولكنها ديناً تلك الواعظة الصغيرة . التي يجبها أخوه Seth ولأول مرة أصبح آدم مشغولاً بها معنياً بأمرها . وقال لأخيه : لست أعجب من حبك إياها فإنها قد أوتيت وجهاً جميلاً هو بزهرة الزنبق أشبه . ثم يمر الزمن وإذا بآرثر دونتهورن يغازل هيتى سوريل . هما يسيران بين

أشجار الغابة . فوقعت عيناً آدم على شبحين يخطوان أمامه ، فوقف جامداً في مكانه كالتمثال وامتنع لونه . وكان الشبحان يقفان ووجهاهما متقابلان وأيديهما متشابكة وكل منهما يهيم بتقبيل صاحبه . ثم افترقا بغتة وجرى أحدهما وسار الآخر متلصقاً إلى ناحية آدم الذي عرف الآن كل شئ . وعرف كل السر في جفاء هيتى وبرودها .

وفي ثورة من ثورات الهوى الذي يعمى ويصم سب آدم خصمه ومزاحمه دونتهورن وأغلظ له في القول . ثم تعاركا عراكاً وحشياً كأنهما نمران . وخر دونتهورن مغشياً عليه بين الحشائش وكأنه فقد الحياة . ولكنه لم يمت فإن القدر يخفى له في مستقبل أيامه مصيبة أخرى . فلما أفاق كتب رسالة إلى هيتى يودعها فيها ثم ارتحل . ثم أصبح آدم شريكاً لمستر برج في عمل من الأعمال ، وخطب هيتى لنفسه . فلم تنطق هيتى بكلمة . ولكن آدم قرب وجهه من وجهها ووضعت هي خدها لصق خده كأنها قطيعة تريد أن تدلل ، وكأنها تريد أن تحس أن آرثر كان معها مرة أخرى .

وتملك هيتى رعب شديد فسارت مرتحلة تريد في ظاهر الأمر زيارة ديناً ، ولكنها اختفت . وفيما يلي وصف لما

ولكن ضربة قاصمة قد نزلت بي ،
ومصيبة كبرى قد ألمت بساقي .
ولكن هيتي قد ذهبت ولست
أدرى أين استقر بها النوى . فقد قالت
إنها ذاهبة إلى سنوفيلد يوم الجمعة .
ومضى على يوم الجمعة هذا أسبوعان .
وقد ذهبت يوم الأحد الماضي لأعود
بها ، ولكنها لم تكن هناك . وقيل لى
إنها استقلت عربة إلى ستونيتون وبعد
ذلك لم أعرف أين ذهبت . ولكنى
اعتزمت اليوم سافراً طويلاً لأبحث عنها .
ولن أستطيع أن أفضى بهذا السر إلى
أحد سواك .

فقال له مستر إروين : وهل

تعرف سبب هروبها ؟

— يبدو أنها كانت لا ترغب في
الزواج منى . وقد هربت عندما اقترب
الموعد . ولكنى أشك في أن هناك
شخصاً ثالثاً قد بدا في الأفق .

فبدا السرور على وجه مستر
إروين في تلك اللحظة وكأنما أزيح عن
صدره هم ثقيل .

ثم استأنف آدم حديثه قائلاً :
أنت تعرف يا سيدى ذلك الرجل الذى
حسبته أصدق صديق لى ، والذى كنت
أفخر بأنى سوف أقضى حياتى أعمل لأجله
وكانت هذه أميتى منذ كنا صبيين ...
وعندئذ أسك مستر إروين بذراع

تتابع من حوادث مبتدئة بالحديث
الذى دار بين آدم وبين إروين :
« أنت تريد التحدث إلى يا آدم . »
قال إروين ذلك القول فى صوت
هادئ هدهوء مقتسراً ، وكأنما لجأ
إلى هذا الهدوء المقتسر ليكتب ما فى
نفسه من ثورة وهياج . ثم قال له :
« اجلس » وأشار إلى كرسى أمامه ،
فجلس آدم وقد أضاف البرود الذى
لقيه من إروين صعوبة جديدة تمنعه
من الافاضة بمكنون صدره . ولكن
آدم وقد أجمع أمره على الافضاء
بسره ، لم يكن بالرجل الذى ينكص
على عقبيه إلا لأسباب قاهرة .

وقد بدأ حديثه مع إروين بقوله :
إنى ألجأ إليك يا سيدى كرجل نبيل
هو عندى فوق الناس كلهم . وإنى
لمنبئك بأشياء تحز فى نفسى . أشياء قد
يؤلك سماعها كما يؤلنى ذكرها . وإذا
رأيتنى يا سيدى أتكلم عن مساوئ
الناس وأخطائهم فاعلم أن الدافع لذلك
دافع قوى .

فهز مستر إروين رأسه متمهلاً .
واستمر آدم فى حديثه وهو يرتجف
قائلاً : لقد كان موعد زواجى بهيتى
سوريل يا سيدى اليوم الخامس عشر
من هذا الشهر . وكنت أظنها تحببى ،
وكنت بذلك الظن أسعد مخلوق .

لقد أصبحت به مغرمة ، وحتى لقد أصبحت عن حب من يرغب في زواجها معرضة . ثم أعطيتها الخطاب فتظاهرت بقبوله كما كنت أتوقع . ثم حنت على حنواً كان يزداد ساعة بعد ساعة . ولعل المسكينة لم تكن تعرف حقيقة أمرها ساعتئذ . ولكني لا ألومها ؛ ذلك لأني لا أستطيع أن أظن أنها قد أرادت خداعي وغشي . وكان عندي ما يشجعني على الظن أنها تحبني . وأنت تعرف الباقي يا سيدي . ولكن لا يبرح من ذهني أنه كان كاذباً معي وأنه أغراها بالهروب ، وأنها ذهبت لتلتحق به وإني ذاهب الآن لأرى . ذلك لأني لن أستطيع أن أعود إلى عملي قبل أن أعرف بصير تلك الفتاة .

وبينا آدم يقص قصته كان ستر إروين قد استعاد رباطة جأشه على الرغم من الأفكار المقلقة التي طافت به يزدحم بعضها بعضاً . وكانت ذكرى مرة الطعام . إذ تذكر أن آرثر قد تناول الفطور عنده هذا الصباح ، وكان يبدو عليه أنه يريد أن يفضي إليه باعتراف . والآن قد تبين لمستر إروين ما كان يريد أن يفضي به آرثر .

ثم عاد مستر إروين فألقى يده في رفق فوق ذراع ادم التي كانت على المائدة وقال في خشوع :

آدم ، وكأنا فارق وقاره وشد عليها وقال في صوت متهدج : أرجو ألا تقول هذا . . .

فذهل آدم لما انتاب مستر إروين من انفعال وندم على قوله وجلس وقد تولاه صمت من أصابته مصيبة .

ثم ارتقى مستر إروين في كرسیه وقال لآدم : قل كل شيء فلا بد لي أن أعرف كل شيء .

فقال آدم : إن ذلك الرجل قد حلب لب الفتاة وسلك نحوها سلوكاً لا حق له في سلوكه مع فتاة في مثل مركزها في الحياة ، وأهدى إليها الهدايا واعتاد أن يذهب لملاقاتها فيسيراً جنباً إلى جنب . ورأيتهما معاً قبل هروبهما بيومين وهو يقبلها قبل أن يغادرا مكانهما في الغابة . ولم يدر حديث بيني وبين هيتي يومذاك ، ولو أني كنت أحبها منذ زمن وكانت هي تعرف ذلك . وقد عنفته وزجرته على أخطائه ثم تبادلنا الشتائم واللكمات ، ولكنه قال لي بعد ذلك في خشوع الرجل التقى إن الأمر بينهما لم يكن إلا عيباً ، ولم يخرج عن حد الغزل . ولكنني جعلته يكتب خطاباً ينبيء فيه هيتي أنه لم يكن يعني شيئاً ، ذلك لأني رأيت جملة أنور ما كنت أستطيع يومئذ أن أفهمها . فقد ملك قلبها حتى

فارتجفت لذلك القول شقتا آدم .
ولكنه لم ينطق بكلمة ، ثم تحركت
شفتاه مرة أخرى لتهمساً بقوله :
« أنبئني » .

— إنها مقبوض عليها . إنها في
السجن . وكأن ذلك القول كان لطمة
قوية أحييت في آدم روح المقاومة وصعد
الدم إلى وجهه وقال في صوت عال :
وما جريمتها ؟

— إنها جريمة كبرى . إنها قتلت
طفلها . فصاح آدم : هذا مستحيل .
وقام من كرسيه متوجهاً إلى الباب ثم
عاد . ثم نظر إلى مستر إروين وقد
بدت عليه وحشية الغضب : ذلك
مستحيل . . . إنها لم ترزق طفلاً قط .
وهي لذلك لا يمكن أن تكون مجرمة .
ومن ذا الذي يقول ذلك القول ؟
— إني أدعو الله يا آدم أن تكون
بريئة .

— ولكن من قال أنها مذنبية ؟
قل لي كل شيء .

— هذا خطاب من قاضي التحقيق
الذى ينظر في أمرها . ورجل البوليس
الذى تولى القبض عليها جالس الآن
في غرفة المائدة . وهي مصرة على ألا
تبوح باسمها ، وأن لا تدل على بيتها .
ولكنى أخشى أن ليس هناك شك في
أنها هي هيتى . فان الوصف ينطبق

— يا صديقى العزيز آدم : لقد
مرت بك مجارب قاسية في الحياة .
وإنك لقادر على أن تتحمل الحزن كما
يحتمله الرجال ، وكذلك أنت قادر على
أن تعمل عمل الرجال . فالله سبحانه
يريدنا أن نكون كذلك . وإن هناك
حزناً ثقيلاً في طريقه إليك ، وهو حزن
أشد من كل ما مر بك من أحزان .
ولكن الذنب ليس ذنبك . ثم اعلم
أن من الناس من ترجح كفهم في
الحزن كفتك وهؤلاء لم الله .

ونظر كلاهما إلى صاحبه وقد استمع
لونهما . وكان يخامر آدم قلق يهزه هزاً ،
كما كان يخامر مستر إروين إشفاق يخالطه
التردد ، ولكنه استمر في حديثه يقول :
— لقد جاعنى هذا الصباح خبر
عن هيتى فهى لم تذهب إلى صاحبك
بل هى فى ستونيتون .

فنهض آدم من كرسيه وكأنه قد
خيل إليه أنه يستطيع أن يطير إليها في
تلك اللحظة . ولكن مستر إروين قد
أسسك بذراعه مرة أخرى وقال :
انتظر يا آدم . انتظر . ثم استطرد
يقول : إنها في موقف لا تحسد عليه .
ذلك الموقف الذى لو رأيته فيه لساءت
الأمر بينكما أكثر مما كانت يا صديقى
المسكين . بل لكان الأمر أسوأ مما لو
كنت فقدتها إلى الأبد .

عليها ، لولا شحوب ألم بوجهها ، ولولا سقم نزل بجسمها . وقد وجدوا في جيها دفترأ كتب فيه اسمان : واحد في أوله وهو هيتى سوريل من مدينة هاى سلوب واحد في آخره وهو دينا موريس من مدينة سنوفيلد . وهى ترفض أن تقول أى الاسمين اسمها ، وهى تنكر كل شئ ، وهى لا تجيب على الأسئلة . وقد طلب إلى أن تعمل على التحقق من شخصيتها . ذلك لأنهم يرون أنه من المحتمل أن يكون الاسم الأول هو اسمها .

— ولكن أى دليل عندهم عليها لو كانت هى هيتى ؟ قال ذلك والانفعال يهز جسمه هزأً عنيفاً . لن أصدق هذا ولا يمكن أن يكون هذا قد وقع ولم يعلم به واحد منا .

— إنه دليل مزعج على أنها كانت تحاول ارتكاب الجريمة . ولكننا نرجو ونأمل أنها لم ترتكب هى تلك الجريمة وإليك هذا الخطاب فاقرأه يا آدم فأخذ آدم الخطاب بين يديه المرتجتين وحاول أن يثبت ناظريه فيه . وخرج مستر إروين ليأمر أمره فى بعض الأمور . ولما عاد كانت عينا آدم لا تزالان مثبتتان فى الصحيفة الأولى . وكان — لفرط ذهوله — لا يستطيع القراءة ولا يستطيع أن يفهم مدلول

الكلمات ، ورمى الخطاب إلى الأرض آخر الأمر ثم ضم قبضة يده . ثم قال : إن هاك جريمة فهى جريمة آرثر . ومفتاح الجريمة عنده ، لا عندها . فقد علمها الخيانة والغش وقد خدعنى أنا أول من خدع . فليقف معها جنباً إلى جنب عند المحاكمة . وسأخبر القوم كيف اغتصب قلبها وكيف أغراها على فعل السوء . فهل يظال هو حراً طليقاً ، وتلقى هى العقاب وحدها وهى لم تزل صغيرة مهيضة الجناح ؟

ثم قدمت هيتى إلى المحاكمة . وبعد أن صدر الحكم دوت فى قاعة الجلسة صرخة تصم الآذان وكانت الصرخة صرخة هيتى . فوقف آدم على قدميه ومد ذراعيه إلى ناحيتها . ولكن المدى كان بينهما بعيداً . ثم سقطت هى وقد اتابتها نوبة إغماء . ثم أخرجت من دار المحكمة إلى السجن انتظاراً ليوم التنفيذ . وقد أصرت هيتى إصراراً تاماً على الانكار أثناء المحاكمة وبقيت على إصرارها فى السجن . وقد خرجت عن صمتها نزولاً على رجاء صاحبها دينا وقالت والندم يهز كيائها ، وقد انفرجت شفتاها وهى تبكى بكاءً صادراً عن القلب : « يا إلهى إننى أجمت » . ثم طوقت عنقها بذراعيها وقالت :

تكن بى قدرة على أن أنظر لأى مخلوق
مخافة تحقيرى وإذلالى .

ثم توقفت مرة ثانية كأئما
الاحساس بالماضى كان أقوى مما تحتمله
الكلمات ثم عادت إلى حديثها فقالت :
— ثم توجهت إلى ستونيتون

وبدأت أحس بالرعب يدب فى قلبى
تلك الليلة ؛ لأنى كنت قد اقتربت من
البيت . ثم ولد الطفل الصغير فى
وقت كنت لا أتوقع فيه ميلاده . . .
ففكرت فى التخلص منه ، وفى العودة
إلى البيت . وقد خطرت لى الفكرة
بغته وأنا مستلقية فى الفراش ، ثم بدأت
الفكرة تقوى وتشد . . . واشتقت
أن أعود مرة أخرى . . . ذلك لأنى
كنت لا أحتمل العزلة . ثم ألفت فى
نفسى القوة وصحة العزم والمقدرة على
أن أرتدى ملابسى ، وأحسست أن
ذلك واجب مفروض على . . . وتمنيت
أن أجد بركة ماء فى ركن من أركان
المزرعة . ثم فكرت فى الخلاص من
أسباب البلاء وفى العودة إلى البيت .
على ألا أحيطهم خبراً بأسباب هروى .
« خرجت مع البازى على سواه »
والطفل تحت كسائى . وأسرعت
الخطى حتى أبعدت . فلقيت جمعاً من
الناس ثم أعطيت شيئاً ساخناً لأشربه
ثم كسرة من خبز . . . ثم غذزت

سأتكلم . سأنبئك بكل شئ . ولن
أخفى شيئاً .

ولكن العبرات كانت تخفقها .
غفلتها دينا فى رفق وأجلستها على
الحصير مرة أخرى وجلست إلى جانبها ،
وتماسكتا باليدين . وأخيراً همست
هيتى قائلة :

— لقد ارتكبت الجريمة يا دينا .
ولقد دفنته فى الغابة . . . وأعنى به
الطفل الصغير . . . وقد بكى . . .
وقد سمعته يبكى طول الليل . . .
ورجعت أدراجى لأنه كان يبكى .

ثم توقفت . ثم عادت إلى الكلام
فى صوت عال ، وفى لهجة فيها معنى
التوسل . وقالت :

— وظننت أنه لن يموت . فقد
يلتقطه بعض الناس . ولم أقتله أنا . . .
لم أقتله بيدي . . . إنما ألقيته على
الأرض . وجعلت فوقه غطاء . ولما
عدت لم أجده . . . وكان ذلك لأنى جد
تعيسة يا دينا . ولم أعرف أنا إلى أين
أسير . . . ولقد حاولت قتل نفسى
فلم أستطع . ثم حاولت الموت غرقاً فلم
أقدر . . . فذهبت إلى وندسور ثم
هربت كما تعلمين . وقد ذهبت أفتش
عنه لكى يعنى بأمرى ، ولكنه كان قد
رحل . . . وعندئذ ضاقت بى السبل
ولم أجرو على أن أعود إلى البيت ، ولم

وكان كأنه حمل ثقيل شد إلى عنقي .
ومع ذلك فان بكاءه كان يبكيني . وما
كانت بي قدرة على النظر إلى وجهه
وإلى يديه الصغيرتين . ولكني
مشيت قدماً إلى الغابة وجبت أنحاءها
ولكن لم أجد ماء . . . ثم ارتحفت
هيتي وظلت صامتة بضع ثوان ثم
استأنفت حديثها وهي تهمس همساً :
— وجئت مكاناً يكسوه العشب

وقطع الأشجار ثم جلست أفكر فيما
سوف أفعل . ثم لاح لي بغتة حجر
تحت شجرة من شجر البندق وبدأ لي
هذا الحجر كأنه قبر صغير ، وخطر لي
في مثل سرعة البرق خاطر أن أفدس
المطفل في هذا الحجر وأن أغطيه
بالأعشاب وقطع الأشجار . وما كنت
أستطيع قتله بطريقة أخرى غير هذه
الطريقة . وقد فعلت ذلك كله في دقيقة
واحدة ، وقد علا صراخه يا ديننا حتى
لم أستطع أن أثقل عليه الغطاء .
وظننت أن قد يمر به أحد الناس فيعني
به ، وينجو من الموت . ثم أسرعت
الخطى وأنا أغادر الغابة ولكني كنت
أسمع بكاءه وقتاً طويلاً . ولما بلغت
الحقول كنت كأنني سمريت في مكان
فلا أستطيع حراكاً . جلست على
العشب لأنظر هل يقبل أحد من
الناس .

السير . وكنت أخفف الوطاء ثم أضاء
القمر وقد تولاني الخوف منه يا ديننا ،
عندما نظر إلى من خلف السحاب .
ولم أعهد في القمر تلك النظرات من قبل
ثم عجت إلى الحقول . ذلك لأنني كنت
أخشى أن ألقى أحداً من الناس والقمر
يطل على . ثم ألقيت بنفسي على
العشب اليابس أطلب الدفء وأحاول
أن أنام . . .

وكانت هناك فرجة وسط العشب
حيث اتخذت فراشي وحيث نمت نومة
أحسست فيها بطعم الراحة . وكان
المطفل في دفاء وهو يجاني وأظنني قد
نمت نوماً طويلاً . ذلك لأنني لما
صحوت كان الوقت صباحاً وإن يكن
النور لم يعم الكون بعد . وكان المطفل
يبكي . ثم رأيت غابة على مدى غير
بعيد ، وظننت أن قد تكون هناك
بركة ماء أو أخدود . . . وخلت أن
في الوقت فسحة ، وأنتى أستطيع أن
أخبي المطفل وأن أبعد في سيري قبل
أن يستيقظ القوم ، وأن أركب إلى
البيت وأنبئهم بأنني كنت أبحث عن
عمل وأن مسعاي لم ينجح . . . وكم
تاقت نفسي إلى هذا يا ديننا . كم
تاقت نفسي إلى أن أعود إلى البيت
سائلة . أما شعوري نحو المطفل فلم أكن
أبينه . فقد كان يبدو لي أنني أكرهه .

وكان الجوع قد بلغ منى . ولم يكن
عندى غير كسرة من خبز ، ولكنى
لم أستطع المضى . وبعد لحظة حسبتها
دهوراً ، جاء الرجل ذو القباء ونظر إلى
نظرة ألقت الرعب فى قلبى فذعرت
وأسرعت الخطى . ولقد ظننت أن
وجهته الغابة ، وأنه قد يعثر على
الطفل ، ثم مضيت قدماً حتى جئت
قرية على مدى بعيد من الغابة وقد
اجتمع على الجوع والتعب والمرض .
ولقيت هناك شيئاً آكله ثم اشتريت
رغيفاً . ولكن الرعب كان يمنعنى
البقاء . فقد كنت أسمع بكاء الطفل ،
وكان يخيل إلى أن الناس كلهم فى
جميع أقطار الأرض يسمعون بكاءه .
فاستأنفت المسير ، ولكنى كنت جد
متعبة . وكان الليل مقدماً ، وهناك فى
ناحية من نواحي الطريق لقيت «شونة»
بعيدة عن مكان البيوت . وهناك
اختبأت واتخذت من القش حصيراً ،
ثم رقدت ثم غلبنى النعاس ولكن بكاء
الطفل كان يوقظنى . ثم صحوت وكان
الصبح قد بدا ، ثم دفعتنى قدماى إلى
العودة من حيث أتيت ، ولم أستطع
يا دينا لهذه الرغبة دفعا . وكان بكاء
الطفل هو الدافع لى . ومع هذا فقد
كان الخوف يزلزل أقدامى ، وظننت أن
الرجل ذا القباء قد رآنى وأنه يعرف

أنى خبأت الطفل هناك . ولكنى
بالرغم من ذلك كله قد سرت فى تلك
الطريق ، وتخلّيت عن فكرة العودة
إلى البيت بل انتزعتها من مخيلتى
انتزاعاً . ولم يكن أمام ناظرى إلا ذلك
المكان فى الغابة حيث دفنت الطفل ...
وإنى لأراه إلى هذه الساعة يا دينا ...
فهل سأظل أراه إلى يوم تقوم الساعة؟
ثم تعلقت هتّى بأذيال دينا ثم ساد
السكوت بينهما ، وقتاً طويلاً قبل أن
تستأنف حديثها ، ثم قالت :
- لم ألق أحداً . ذلك لأن الوقت
كان مبكراً ثم وصلت إلى الغابة . . .
وكنت أعرف الطريق إلى المكان . . .
المكان الذى يقابل شجرة البندق .
وكنت أسمع بكاء الطفل فى كل خطوة .
وكنت أظنه حياً . . . ولست أعرف
أكان هذا الخاطر يرعبنى أم كان يعث
إلى نفسى السرور . . . ولست أعرف
الشعور الذى أحسست به . وكل ما
أعلمه أنى كنت فى الغابة وأنى سمعت
بكاء الطفل ولم أتبين شعورى حتى
رأيت أن الطفل ، قد ذهبوا به .
وإنى عندما وضعته هناك خيل
إلى أنى أتمنى أن لو التقطه أحد ليقبذه
من الموت . ولكنى لما رأيته قد ذهبوا
به طار لى من الفرع . وقد أوهن
ساعدى الخوف فلم أستطع حراكا ،

وخلت أن كل من نظر إلى يعرف شيئاً عن الطفل . ثم تحجر قلبي فبقيت في مكاني لا أتمنى شيئاً ، ولا أحاول أمراً . وخيل إلى أنه أصبح حتماً على أن أبقى هناك حتى يقضى الكتاب أجله ، وأن شيئاً من الأشياء لن يناله التبديل والتحويل . ولكنهم جاءوا وذهبوا بي . . .

ثم سكتت هيتي ثم عادت ترتجف كأن عندها للحديث بقية في الزاوية ووقفت دينا موقف الانتظار . ذلك لأن الحزن كان قد لاع قلبها وأشرقها بدمه ، ثم انطلقت هيتي تقول ، وقد جاشت في صدرها غصص الموم : — أتعطين يا دينا أفى وقد بحت بكل شيء ، أن الله سبحانه سوف يسيني ذلك البكاء ، بكاء الطفل ، وذلك المكان المعهود في الغاية . . .

ثم يزور آدم هيتي في الساعات الأخيرة التي تسبق تنفيذ الحكم . ثم تبدأ الخطوات الأخيرة في سبيل التنفيذ ثم يحيى صباح يوم تنفيذ الحكم بالاعدام . . .

وكان منظرًا من مناظر الحزن التي يذكرها الناس أكثر مما يذكرون أحزانهم وهمومهم . ذلك النظر الذي رآه الناس في صباح ذلك اليوم الصافي الأديم عندما جاءت العربة تقبل

المرأتين في سن الشباب . وقد شاهدها عن بعد ذلك الجمهور المترقب وهي تشق طريقها ، ووجهتها المشقة . تلك الصورة الشنيعة البشعة للموت المفاجئ الذي يسبقه الإصرار والعمد . . . وكل الناس في ستونيتون قد سمعوا عن دينا موريس تلك الواقعة الشابة التي ألجأت تلك المجرمة المصرة على الإنكار أن تعترف . وكل الناس كانوا في شوق إلى أن يروها ، وأن يروا تلك الشقية هيتي .

ولكن دينا كانت عن الجمهور في صم . وعندما وقع نظر هيتي على الجمهور أمسكت بدينا وهي ترتجف . فقالت لها دينا : أغمضي عينيك . ولنتوجه إلى الله الغفور الرحيم بدعائنا وصلاتنا .

وفي صوت خفيض نطقت بدعائها — الذي كان كآخر سهم من سهام التوسل — لتلك الخلوقة المرتجفة . التي كانت تنظر إليها كآبة على الشفاق والحب .

ولم تكن دينا تعرف أن الجمهور ينظر إليها في شيء من الخشوع . بل لم تكن تعرف مدى ما بينها وبين ذلك المكان المشؤم مكان المشقة ، حتى وقفت العربة ، وانتفضت هي فرعة مرعوبة لدى سماعها صرخة مزعجة

كأنها إحدى صرخات الشياطين . وكان راكب الجواد يتطاير الشرر
 ثم اختلط صراخ هيتي بتلك من عينيه وكأنه قد جن جنونه . . .
 الصرخة ثم أمسكت كلتاها بصاحبتهما وانظر إليه . . . أنه يحمل في يده
 من فرط الذعر المشترك بينهما . شيئاً . . . وكان يرفع يده كأنه يشير
 ولكنها كانت صرخة مبعثها إلى شيء . . .
 الانفعال لا القسوة . إنها صرخة هياج وكان العمدة يعرفه — إنه آرثر
 مفاجئ بعثها ظهور فارس يمتطي جواداً دوتهورن يحمل في يده ذلك الشيء
 يشق الصفوف وهو في أقصى سرعة . الذي نجا من الموت بأعجوبة . . .

بارك إبراهيم

(عن الإنجليزية)